نخله جرجس زريق[1]

وقد وجدت مجال القول ذا سعةٍ فان وجدت لساناً قائلاً فقُلِ

لكارليل الفيلسوف الانكليزي والكاتب العبقري المشهور كتاب اسمهُ الابطال اودعهُ من قلمهِ البليغ ست محاضرات . الاولى عن البطل في صورة إله والثانية عن البطل في صورة رسول والثالثة عن البطل في صورة شاعر والرابعة عن البطل في صورة قسيس والخامسة عن البطل في صورة كاتب والسادسة عن البطل في صورة ملك. الاله والرسول والشاعر والقسيس والكاتب والملك هؤلاء هم ابطال كارليل ومن شاء ان يفهم معنى البطولة وكيف يكون الانسان عظيماً فليقرأ هذا الكتاب الذي تمثلت في مؤلفهِ روح البطولة باسمى معانيها. ليقرأهُ مرة ومرتين وثلاثاً ولا يتركهُ حتى تتشبع روحهُ منهُ ويحسّ انهُ صار اسمى واشرف واعظم مما كان . ولكن هناك ابطالاً كثيرين كان يجب ان يجعلهم في عداد ابطالهِ منهم البطل في صورة معلم. ومن احق من المعلم بان يكون في عداد الابطال وهو الذي يخلق الابطال ويصنع العظماء ويكوّن الامم بل يغير العالم. ولعل كارليل اغفل ذكر المعلم لانهُ كان يمقت حرفة التعليم بعد ان اشتغل بها نحو اربع سنوات ثم تركها ساخطاً عليها وعلى اهلها صائحاً « لا طاقة لي بعد بهذه الحرفة » او لعلهُ رأى ان المعلم يدخل في جملة ابطالهِ فالاله والرسول والشاعر والقسيس والكاتب والملك ليسوا الاّ معلمين يلهمون الناس الخير ويهدونهم الصراط المستقيم وينورون بصائرهم ويحيون ارواحهم ويكيفون امورهم . وكما انهُ ليس كل اله او رسول او شاعر او قسيس او كاتب او ملك بطلاً . اذ ان بين الآلهة آلهة شرّ وبين الرسل رسلاً كذبة مزورين وبين الشعراء شعراء ادعياء متطفلين وبين القسيسين ورجال الدين اناساً خبثاء مضللين وبين الكتبة كتبةً سقاطاً متصنعين وبين الملوك ملوكاً اصاغر صعاليك . كذلك ليس كل معلم بطلاً بل ما اقل الابطال بين المعلمين فقد تمر الاجيال تلو الاجيال قبل ان يظهر منهم بطل . ولعل ذلك ايضاً من جملة الاسباب التي حملت كارليل على اغفال ذكر المعلم بين ابطالهِ . واذا كان الابطال من

(١) خطبة القاها الاستاذ خليل السكاكيني في القدس تأبيناً لاستاذه المرحوم صاحب الترجمة في حفلة الاربعين في سبتمبر الماضي

المعلمين قليلين في الماضي فسيكونون اقل في المستقبل لان قيود هذه المدنية والنظمة هذا الاجتماع تقتل روح البطولة في البشر وتجعل منهم آلات صماء وصوراً جوفاء واذا ظهر بينهم بطل من ابطال كارليل او غيرهم ممن لم يذكرهم في كتابهِ فذلك قلتةٌ من قلتات الطبيعة او منحة من منح الدهر الماضي

ومن هم الابطال ؟ هم الذين يجددون شباب هذا العالم حين يستولي عليهِ الهرم وينفخون فيهِ روح البطولة حين تخيم عليهِ ظلال الموت والاَّ صار الى الخراب والبلى ... واسعد الامم حظاً واقدرهن على الحياة هي الامة التي تعمُّ روح البطولة كل ابنائها فما تلق احداً منهم الاَّ لقيت بطلهم ولا يموت بطل الاقام بطل فتؤول لما قال الكرام فعول . واسوأ الامم حظاً واعجزهن عن الحياة هي الامة التي تتعاقب عليها الاجيال ولا يظهر فيها بطل واذا ظهر فيها بطل لم يفهمهُ احد كأنهُ جاء في غير وقتهِ . تلك امة تتدرج من سيء الى اسوأ الى ان تدوج في اكفانها او ان يتداركها الله ببطل منها او من غيرها ويلهمها الايمان بهِ فيقيلها من عثرتها ويعود بها الى الحياة وقد يحيي البطل الواحد امة باسرها ... واذا كان الناس يعظمون الابطال ويتخذونهم المثل الاعلى في الحياة فما ذلك الاَّ لان في نفوسهم شيئاً من روح البطولة والاَّ لم يكن لبطل كرامة . وهذه الروح هي ميراث الاجيال الماضية حين كان الناس يعبدون ابطالهم ولو كانوا وهميين ولو كانوا خشباً مسندة او ركاماً من الحجارة . حين كانوا يعبدون في ابطالهم القوة والعظمة والشجاعة والحق والجمال والفضيلة باسمى معانيها .... قد تعدو على هذه الروح العوادي فتضاءل وتستكين الى ان تختفي ولكنها لا تموت بل تكمن في النفوس كمون النار في الحجر الى ان تجيء الايام ببطل جديد فيذكي تلك الروح ويستثيرها من مكمنها ثم لا تلبث ان تتحوّل ايماناً بذلك البطل وعبادةً لهُ . ولا يؤمن بالابطال الا من خالط نفسهُ شيء من جوهر البطولة كما قال كارليل . اي اذا كان البطل في صورة اله فمعنى ذلك ان في كل من يعبد ذلك الاله شيئاً من جوهر الالوهية واذا كان البطل ملكاً فمعنى ذلك ان كل الذين يسيرون تحت لوائهِ ملوك . واذا كان البطل شاعراً فمعنى ذلك ان كل الذين يفهمون ذلك الشاعر شعراء كأنَّ البطل يستمد من روح الامة التي يعيش فيها كما تستمد هي من روحهِ فهي تصنعهُ وهو يصنعها فلولا الابطال لم تكن امم ولولا الامم لم يكن ابطال ... وليس اكرام الناس لابطالهم

لاَ صورة عن اكرامهم لنفوسهم فاذا عظموا البطل لشجاعتهِ فكأنهم عظموا ما في نفوسهم او ما يريدون ان يكون في نفوسهم من الشجاعة فهم يعبدون نفوسهم في صورة ابطالهم واذا لم يجدوا احداً يمثل ما في نفوسهم او خيالهم من معنى البطولة خلقوا ابطالاً وهميين او اتخذوا رموزاً تمثل لعيونهم او اذهانهم ذلك المعنى العالي الذي يريدونهُ فهم هم الابطال ولا يدرون . ولا يخلو دين من الاديان او مذهب من المذاهب من رموز . واذا كانت الوثنية عبادة رموز ففي كل دين شيء من الوثنية . بل لعل اتخاذ الرموز ابعد في الخيال وادلّ على سموّ الفكر وانفى للريب لان البطل مهما كان عظيماً فانهُ لا يمثل المعنى الذي يجول في خواطر الناس ويخالط نفوسهم احسن تمثيل . بل لا يخلو بطل من جانب يكون فيهِ ضعيفاً ومن الابطال من يكون ذا شخصيتين شخصية تعلو بهِ فوق البشر وشخصية تنزل بهِ الى الدرك الاسفل . بل لعل الابطال انفسهم اشبه بالرموز منهم بالحقيقة لان من شؤون الناس المعهودة انهم اذا احبوا بطلاً واعجبوا بهِ احلوهُ في المحل الرفيع وبرّأوهُ من كل عيب بل ربما عدوا عيوبهُ حسنات وفضائل وجعلوهُ المثل الاعلى لما يحبون من الصفات والمعاني بل ربما الحقوا نسبه بالالهة مبالغة في تعظيمهِ واجلالهِ وتنزيهاً لهُ عن ان يكون من البشر مما يصبح معهُ رمزاً من الرموز لا حقيقة من الحقائق . وحسب الابطال ذلك مكافأة على ما قدموا للعالم من جلائل الاعمال وما تركوا فيهِ من روائع الآثار . وليس ادل على حيوية الامة وسموّ شعورها وبعد خيالها ونزوعها الى الاعلى من اكرامها لابطالها ولاسيما اولئك الابطال الذين يظهرون عند الحاجة اليهم كبطلنا الذي احتفلنا اليوم لتكريمهِ

***

لم نجتمع اجابةً لدعوة داع او مجاملة لاحد لاننا نحن الداعون ونحن المجيبون وانما اجتمعنا اجابةً لدعوة تلك الروح الكامنة في نفوسنا روح البطولة التي كان للاستاذ المحبوب يد في اذكائها . وانهُ لمشهدٌ محزن ومما يزيدنا اسفاً على اسف اننا كنا ننوي ان نقيم مثل هذه الحفلة لتكريمهِ في حياتهِ ولم يخطر لنا في بال ان الموت سيعاجلهُ قبل ان نقوم بهذا الواجب وما كان اعظم سرورنا لو قمنا بهِ . ولا يهوّن علينا وجدنا الا اننا كنا نحبهُ ونكرّمهُ فاكنا نلقاهُ او نجلس اليهِ الا اقمنا لهُ حفلة تكريم كما اننا لا نذكرهُ بعد اليوم الاَّ حنينا الرؤوس اجلالاً لهُ .

ومن احقّ منا نحن تلاميذهُ الآسفين بتكريمهِ وبكائهِ فقد تأبّيناهُ وتأخّيناهُ وصادقناهُ واحببناهُ وتسومنا بسيماهُ واقتبسنا من علمهِ وفضلهِ واستمددنا من روحهِ وكان لنا المثل الاعلى والقدوة المثلى. لا نفكر او نقول او نعمل الا رجعنا اليهِ وأوينا الى رأيهِ فينوّر بصائرنا ويشدّد عزائمنا ويسدّد خطانا ويتحرّى لنا وجوه النصح. كان ابًا لنا وكنا عترتهُ وعشيرتهُ الادنين فاذا بكيناهُ بكيناهُ بدموع التلاميذ والابناء والاخوة والاصدقاء بل بدموع المعجبين بفضلهِ المجلين لقدرهِ المؤمنين ببطولتهِ . قال كارليل « ان من اسباب العزاء ان في ذكرى العظماء كيفما كانت نفعاً وفائدة . والرجل العظيم لا يزال بعد موتهِ ينبوع نور يتدفّق » فهم واننا نرجو ان يكون لنا في ذكرى بطلنا المحبوب وتكريمهِ ودرس حياتهِ بعض العزاء

***

مرّ على النهضة السورية حتى اليوم دوران في الدور الاول كانت شرقية انصرفت فيها الهمم الى احياء اللغة العربية وتجديد معالمها واثارة كنوزها ودفائنها وتأليف الكتب في كل موضوع بها وتأسيس المدارس على مبادىء وطنية . وقد انجبت النهضة في دورها هذا كثيرين من الابطال مثل اليازجي والبستاني والشدياق والشميل واديب اسحق وجرجي زيدان ويعقوب صروف وفارس نمر ويوسف الاسير وابرهيم الاحدب والشرتوني والحوراني والشدودي وغيرهم ممن لا نزال الى اليوم نعيش على فضلهم . ومن حسن حظ هذه النهضة ان اشترك في تأسيسها كثيرون من امم اخرى كانوا اعطف عليها من ابنائها مثل الدكتور كرنيليوس فانديك والدكتور دانيال بلس وجمال الدين الافغاني من اصحاب الهمم العالية والنفوس الكبيرة والاخلاق الفاضلة ممن كانوا ولا يزالون ينبوع نور يتدفق

في اول هذا الدور اي قبل ستين سنة ولد استاذنا المحبوب فادرك شيوخ النهضة وتخرج على اساتذتها وعاشر كهولها وشبانها وسمع خطباءها واحتك فيها باقطاب العلم وائمة اللغة وزعماء الادب وفحول الشعراء ودعاة الوطنية والاصلاح . وفي الدور الثاني اخذ النهضة السورية تيار المدنية الغربية فاصبحت لا شرقية ولا غربية وقد كان استاذنا المحبوب الى آخر حياتهِ من اصحاب الدور الاول . ومع انهُ نشأ في بيروت ارقى مدينة في سورية وعاش في الطبقة الراقية فيها وخالط الاوربيين وعايشهم ولهُ بينهم اصدقاء كرام كان يجلهم

ويعجب باخلاقهم وآدابهم ويرتاح الى اساليب حياتهم مع ذلك فانهُ كان متعصباً لشرقيتهِ متشدداً فيها الى درجة التطرُّف . والابطال كلهم متطرفون ولم يكن ابغض اليهِ واثقل على نفسهِ وادعى لغضبهِ من التقليد والتصنع والكلفة ولاسيما اذا كان التقليد سطحياً وطلاء خارجياً بل كان يكره ان يكون الانسان مقلداً حتى في خاصة نفسهِ كأنهُ كان يقول كن ما شئت على شرط ان تكون صحيحاً صريحاً خالصاً لا بين بين . لا اكذوبة شرقية ولا اكذوبة غربية . لا نسخة مزورة عن هذا او ذاك ولذلك كان في كل حياتهِ شرقياً فحاً لا غش فيهِ وبعبارة اخرى كان «صورة صحيحة طبق الاصل» . ومما زهدهُ في التقليد ما كان يراهُ من اكثر الناس ان تقليدهم للغربيين افسد عقائدهم الوطنية واضعف فيهم روح الاستقلال والاباء. فلم يكادوا يتخذون الزيّ الغربي حتى اخذوا يحتقرون لغتهم وتقاليدهم وعوائدهم وآدابهم وسائر خصائصهم ومقوماتهم الوطنية حتى امتهم فكان يرى تقليد الغربيين بسبب ذلك رقوقاً من الوطنية وعنوان العبودية والصغار لا المجد والفخار فربأ بنفسهِ عن ذلك . وبينما كان المقلدون السطحيون يزهون بثوبهم المستعار زهو الاماء والعبيد كان هو يزهو بزيهِ الشرقي بعباءتهِ وطربوشهِ رمز الوطنية والحرية والاستقلال والاباء. وكم لهُ على اولئك الذين كانوا يفهمون من التقليد استصغار النفس والالتحاق بالغير التحاق المولى بسيدهِ وافناء وجودهم فيهِ غضبات كانت تسحق نفوسهم سحقاً

قلنا ان النهضة السورية اصبحت في دورها الثاني لا شرقية ولا غربية فاذا نظرنا الى هذا الدور نظرة المتشائم قلنا ان النهضة رجعت الى الوراء بدليل انهُ لم يعد احد من اولئك الابطال الذين ظهروا في الدور الاول وكانوا كواكب لامعة فيهِ الا ترك فراغاً لا يملأهُ احد من بعدهِ . واذا نظرنا اليهِ نظرة المتفائل قلنا انهُ مقدمة لدور ثالث ترجع فيهِ النهضة الى شرقيتها بعد ان تتعلم بدم جديد — بعد ان تأخذ من المدنية الغربية ما يلائم مزاجها من الحسنات وتصبغهُ بصبغة شرقية كما فعلت اليابان بل كما فعل العرب انفسهم في نهضتهم بعد الاسلام . فقد كانت نهضتهم لاول عهدها عربية ثم تقمصت ثوب الفارسية واليونانية ثم رجعت الى عربيتها بعد ان صبغت ما اخذتهُ من الفرس واليونان بالصبغة العربية مما لا يتسع المجال للافاضة فيهِ. ومتى دخلت النهضة السورية في دورها الثالث كان لابطال الدور الاول ومنهم استاذنا المحبوب فضل المؤسسين ستأتي البقية